الذكرى الباسمة

لشاعر العاطفة والوجدان جان ريشپان (*)

JEAN RICHEPIN

للأستاذ عبد العزيز العجيزى

لن أنسى لك أبداً أول حديث فى الحب ، فعلى الرغم من انصرافى إلى الصلوات ، إلى الحسرات وتأوهات الضمير ، سأجثم كئيباً ؛ غير جائل بالفكر فيما يثير الفزع فى نفسى ، بل سابحاً بخاطرى فى ذكرى ليلة مقمرة ولت ولم تعد

* * *

لن أنسى لك أبداً أول مناغاة ساحرة ، ولا ما ألاقيه من عنت الزمان وتتابع الحدثان وغفلة النسيان ، ولا من تكدير الصفو وعبوس الجو ؛ فقد طويت صفحات حظى طياً ، لأودع فى ثناياها فؤاد وردتى الناعسة .

* * *

لن أنسى أبداً أول عُرس لربيع أيامنا ، حينما لمع لى سنا عينيك وبدا أشد فتنة وخلابة وإغراء من السماء الصافية ، والغابة الزاهية ، والشمس الغاربة ؛ حينما قبلت عبير الهوى المترقرق من ثغرك الباسم . لن أنسى ذلك أبداً وإن غيبتنى المنون ...

* * *

الأطيار سكرى بسلاف شفاه الأزهار ، والأغانى والأغاريد راقصة على خدود الورود ، لا لشىء سوى ارتشاف عذب نغمات هوانا . فواهاً لهذا الطير ! وواهاً لهـــذا الزهر ! بل واهاً لغرامنا الجامح وحبنا الهائم !

* * *

فى نشوة تلك الساعة غاب صوابنا حتى عن حمد الله ، وتوهمنا اللحظات تمضى على رسلها بينما الحب مقيم دفين ، فغرتنا لقاء الزمن الوليد ترتيب العصفور لوكره . مسكين ! مسكين أيها الطفل الوليد ؛ فقـد أخذتنا غفوة سمعنا فيها هتاف صوت يردد : كل شىء لا يفنى .

* * *

لكن ، أواه ! إنى لا أروم إثارة أحزانى وأشجانى . أواه حبيبتى ! أواه رفيقة صباى ! أواه ليلاى ! سوف يُنفخ دائماً فى مزمار آهاتى وشكاتى . سوف أتنقل فى روض ذكراك ، جانياً قطوف حلاوتك وأفاويق عفتك ، متنسما شذى قبلاتك الناجية مناجاة قبلات القمر الحالم .

* * *

أهيم بذكرى قدك الرخص البارع ، وغصنك المعتدل الفارع ، ذكرى جسدك الذى مازج أشواق فى معبدها الروحانى ، ذكرى أريج أديمك الأشد من رحيق عتيق المدام ، ذكرى الأزهار الفواحة بعداعبة جيدك الأندى من الفجر ؛ ذكرى مرقدنا الحاقد على هوانا ، الملتهب غيرة وحسداً .

* * *

أهيم بذكرى أيامى السادرة فى ثنايا عمرى ، ويغمرنى عُباب ذكرياتى المقدسة . وحين يشتعل رأسى شيباً ، ويغضن الهرم وجهى ، وأصبح مثل « كاساندر »(١) سأستمد الدفء من قبس ربيع حيـــاتى ؛ وسألتمس دائماً حرارة هـــذا القبس من تحت ذرات الرماد .

* * *

عندما يهب إعصار الفناء ، وأحس برد الموت يتمشى فىّ ، سأذكر ربيع عمرنا الطلق النضير . وألفظ حين ذاك النفس الأخير ، فيخبو سراج ذكراى ، وتنعم هنالك روحى بالضوء السنى فى هيكلها النورانى ، وأودع الحياة فى موكب الذكرى ناعم البال ، إلى أفق باسم لألاء .

(المنصورة) عبد العزيز العجيزى

(*) شاعر فرنسى من شعراء القرن التاسع عشر يمتاز بألفاظه الموسيقية ومعانيه الخيالية . له دواوين شعرية جمة ، أهمها : « الشاعاة » ومنها ترجمنا هذه النسمة الشذية .

(١) مثل يطلق على كل مسن جاحد فى تصديق عواقب الأمور رغم بصيرته .